أحزان حزيران ..

قصة بقلم سليمان فياض

كان راقدا على سريره السفري . رأسه على نافذة السرير . وظهره مرفوع بوسادتين . وعلى كتفيه منشفة مبتلة ، كان قد جفف بها شعره لتوه . ولكي يزداد راحة ، ارتكز على مرفقيه . ومن قطرات ماء لاصقة بجذور شعره ، احس بحكة ، فأخذ يجففها مدلكا لحيته بكفه ، ثم بالمنشفة . ونظر الى نتيجة الحائط على يمينه : الثلاثاء . الرابع من يونيو (حزيران) ١٩٦٨ . ٢٧ بشنس ١٦٨٤ . ٨ ربيع الاول ١٣٨٨ . يوم السبت القادم هو الثاني عشر من ربيع الاول . اربعة ايام فقط ويأتي مولد قائد عظيم ، صنع من حوله رجالا . لم يهجموا الا ليموتوا . لم ينسحبوا، ونادرا ما حدث ذلك، الا لينتصروا. لو كان النصر لا ينال الا بكثرة الرجال والسلاح ، ما انتصروا ابدا . الموت احب اليهم من الحياة ، لذلك لم يهزموا . وغدا ذكرى العار والهزيمة . وليس بين الذكرى والذكرى سوى ثلاثة ايام . اثنتان وسبعون ساعة يا رجل . غدا الخامس من حزيران . يتجمع في القلب ، فيك يأيها الخامس من حزيران ، احزان الخامس من حزيران. « احزان حزيران » ، عنوان كتاب قديم ، كتبته هزيمة حديثة ، لم تجف لها جراح ، تسيل قيحا وصديدا، ونتنا وعارا .

كانت انفاسه لاهثة . في صدره تثاؤب لا يأتي . تنهيدة لا يقدر ان يخرجها . مد يده ، ونزع الورقة من نتيجة الحائط . ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٨ . ٢٨ بشنس ١٦٨٤ ، ٩ ربيع الاول ١٣٨٨ . اللعنة ليتنا نفعلها غدا . نفس اليوم . نفس الساعة . بذلك وحده تصبح، يا الخامس من حزيران ، يوما عاديا كسائر الايام . حطم الورقة بين كفيه وهو يجلس . صوت تهشيمها كحريق يتوغل في كومة من الحطب. فرقعة مستمرة في حفنة من الفوسفور . مد يده لينزع ورقة الغد من نتيجة الحائط . ضحك ساخرا في نفسه . لن يلغى ذلك هذا اليوم ، هذه الساعات.. من الزمن. معنى الورقة هو الذي ينبغي ان يموت ، ان يتغير .

نقل نفسه قليلا . ادار ظهره الى الحائط لورقة الغد . تناول مشطا من فوق المنضدة المجاورة لسريره ، واخذ يمشط شعر رأسه . كشعر البنات اصبح شعره . فتيات العدو قصصن شعورهن، وحاربن. ركبن الدبابات وحاربن . ركبن قاذفات القنابل ودمرن الطائرات النائمة على الارض . قلن لنا : لا .. بكل رصاصة . لأؤهم اعمق من لائنا . لن نقول لهم ولهن : نعم .. ابدا . واخذ يمشط ايضا شعر لحيته . جففه حر الرابع من حزيران . عمر هذه اللحية عام الا اسبوعين . حين افاق لنفسه ، من حبوبهم المنومة ، ومسكناتهم المخدرة ، رفض ان يحلقها بعد ذلك . كل الشهور اصبحت شهر حزيران ، وكل الايام ايامه وساعاته ، حدادا موصولا في حزيران .

حين انتهى من تمشيط لحيته ، سرحت عيناه ، وفكر : وراء ظهري هذه الورقة اللعينة . ورقة صغيرة ، على هامشها الاسفل اوقات الصلاة ، والشروق ، والغروب . كنت احملك في قلبي ، اخفيك في صدري ، وها انت تأتيني ، تبدين لعيني ، لا يخفيك ظهري ، فما زلت اراك . وفكر : كانت الورقة هناك دائما ، في قلب هذه النتيجة. ستظل هناك في نتيجة قادمة . في قلب كل نتيجة قادمة . تتساقط عنها الايام ، لتعود من جديد . تأتي بعدها الايام ، وتنسى جميعا ، الا هذه الورقة . كيف يمكن محوك ؟ في كل شجرة من بلادي ورقة للخامس من حزيران . يأتي الصيف ، والربيع ، والخريف ، والشتاء، وهي باقية هناك ابدا . تسقط كل اوراق الخريف ، وينبت غيرها ، وانت ، يا ورقة الخامس من حزيران ، باقية على كل شجرة ، على كل عود قمح ، على كل نبتة برسيم ، وساق قطن ، وعشب شيطاني على حافة جدول . أبالغ انا ؟ كيف ؟ الواقع والخيال ، الحقيقة والحلم ، العقل والعاطفة ، الليل والنهار ، كله في قلبي شيء واحد الان . في اعماقي عقل آخر حر ، يرى على هواه ، الحقيقة ، كما هي في قلبي . عيناي هما عينا قومي . تكذبان علي كثيرا . لذلك الوذ بعقلي الاخر ، قلبي الحقيقي . اف . وجودي انا . لا . وجودي آخر ، بصمته المتآمر ، انكر حق قومي في ضوء الشمس ، وتراب الارض . اوه . تعالي يا أمي ، انقذيني من هذه المتاهة .

***

على الباب لاحت أمه ، تحمل الصينية ذات السيقان . لها اربع ارجل لذلك تقف على سريره . على رجلين أثنتين تتكئ بما عليها . الطعام مرة ثانية ، مرة الفا . مع الغداء سيأتي ، ومع العشاء ايضا . خلية هو الآن ، تأكل وتفكر ، وتتسلى ، وتتعذب ، ولا تقدر ان تفعل شيئا ، سوى الاكل ، والتفكير ، والتسلية ، والتعذب .

استدار بظهره ، مرتكزا على كفيه . تحامل عليهما مرة اخرى ، وزحف للخلف ، واستند بظهره الى نافذة السرير . ووضعت امه الصينية فوق الملاءة . واحاطت ارجلها بفخذيه . انحنى نحو الصينية، وبدأ يأكل بشهية : بيضتان ، ورغيف ، ومربى ، وقطعة جبن ، وخيارتان . فكر وهو يأكل . المحكوم عليه بالاعدام يأكل كثيرا . هذه حقيقة لا تكذب فيها العينان ولا الاذنان :

ـ ماذا بك ؟

ـ ماذا بي ؟ .. لا شيء .

ـ عيناك محمرتان .. ما فائدة التفكير !!

ـ وما فائدة الطعام !!

ـ دعني افكر معك .

ـ لا . انني اخرف . اتسلى . امزق الوقت الذي مزقني .

قالها وهو يمضغ لقمة كبيرة ، ملأت شدقيه . تضاحكت امه :

ـ تسل يا بني . افعل ما تحب . لكن ، لا تعذب نفسك .

ـ طيب . اديري هذا الراديو .

مدت يدها . ادارت مفتاح الراديو . ضبطت المؤشر على المحطة. بعد لحظة ، جاءت الاغنية الحزينة التي يحبها .

« مصر التي في خاطري وفي فمي

احبها من كل روحي ودمي .. »

توقف عن الاكل . وانصت مفكرا . وجمت امه لمرآه . مدت يدها لتغير المحطة .

ـ لا . اتركيها .

عاد يأكل لتطمئن .

ـ اجلسي .

جلست على حافة السرير . بين النافذة الاخرى ومقعده ذي العجلات . نظرت عبر الملاءة ، الى ساقيه غير الموجودتين . سحبت نظرها بسرعة . تنهدت برفق . لحظها ، وادرك . فابتسم بمحبة . عاد الكورس يردد :

« مصر التي في خاطري وفي فمي

احبها من كل روحي ودمي »

قال لها :

ـ لو كان ذلك حقيقة ، لما حدث ما حدث .

قالت :

ـ ماذا كان بوسعنا ان نفعل . فاجأونا . شلتنا طائراتهم .

ـ ولو . كان في يدنا الكثير ما يزال . لم نقاتل به كما ينبغي . تركنا الارض لهم في موجة ذعر . خرافة هي غطاء الطائرات . فيتنام الشمالية صامدة بدون غطاء من الطائرات . المحارب يحارب ، حتى بحجر ، ويأخذ سلاحه من عدوه . خرافة هي التكنولوجيا بدون الانسان . الانسان اولا .

ابتسمت امه . سعيدة كانت ، لانه لم يفرق في محنته .

ـ طيب . كل .

ـ آكل ؟ . الاطباق فارغة . لا . لا تأتي بشيء . شبعت ولا اريد ان ارهل .

شرب كوب الماء المثلج . همت امه بالنهوض لترفع الصينية .

ـ لا . دعيها الآن .

اخذ ينظر اليها . لماذا ينظر ؟ ينبغي ان تحادثه . نسيت ما كانت تريد ان تسأله عنه . رنت الى الجدران الصفراء . لون لا يناسبه . ستطليها بلون السماء . كان يريد ان يطليها باللون الاسود، ويلبس بيجامة سوداء . لم يعدل عن ذلك الا بصعوبة . اقتنع بأنه عمل سخيف لا يقدم او يؤخر . الحياة تستمر رغم كل شيء . لكن . اية حياة !! . فكر : وجهها اسمر ، بيضاوي ، كوجه هذه الفتاة في تمثال نهضة مصر ، امام الجامعة . لماذا وضعوه بجوار حديقة الحيوانات ؟ . مد يده ، واغلق الراديو ، مع ختام الاغنية . تأمل متحفه على الجدران . كل شيء جعلته في متناول يده ، تكفي لفتة منه ليصل الى غايته : الراديو على الكومودينو . التلفزيون على منضدة مقابلة . بجواره منضدة تحمل مشطه ، ومنديله ، وسجائره وكبريته، ودورق ماء مثلج دائم التغيير ، وكوبة مرقشة . على يمينه مسامير تتدلى منها على الحائط : مطواة المانية حادة ، ومشجب معلق عليه الشورت والقميص ، مكويان دائما ، وشهادة كلية التجارة مؤطرة باسمه . البيت كل عالمها من أجله . ود لو يقبل جبينها بمحبة ، ابتسم لها . لم تر ابتسامته . مشغولة عنه بمتحفه الخشبي على الجدران : بنادق ، ومدافع رشاشة ، وقنابل يدوية ، ومدافع مضادة للطائرات ، ومدافع ميدان ، وطائرة ميج . بمطواته هذه ، ومبرد خشبي، ومبرد حديد ، ومسامير صغيرة ، واوراق سنفرة ، صنع متحفه خلال عام . قال لها ضاحكا :

ـ عدت طفلا يلعب .

قالت :

ـ احسن .

ندمت لذلك . صححت قولها :

ـ انت طفل كبير . طفلي .

وضع ساعديه على طرفي الصينية . اراد ان يضحك . لكن ورقة الغد ، الخامس من حزيران ، كانت بجواره . وجم اذ خطرت على باله هكذا سريعا . قالت له مشيرة الى متحفه الخشبي :

ـ انك تتسلى .

نظر الى جداره . قال وهو يبتسم بمرارة :

ـ واحلم .

قالت له وهي تنهض لتحمل الصينية :

ـ ما يفعله الله يكون .. هيه .. هو يدبر ملكه .

قال لها بحكمة :

ـ فليكن . الله فعلنا نحن . وما يكون لنا نحن الذي نصنعه لانفسنا .

قالت له مهونة عليه :

ـ فعلت ما عليك . لا تحمل هما .

ـ انا لم افعل ما علي ابدا . سمعت واطعت . والنتيجة .. هيه .. اجلسي .

عادت تجلس قائلة :

ـ سأطبخ ، واشوف البيت .

نظر في ساعته ، وقال لها :

ـ الساعة ما تزال التاسعة .

ورنا اليها . ثمة جيبان متهدلان تحت عينيها . احزانها لاجله تختزنها في كبدها . آه يا امي . احزان حزيران اكبر بكثير . نغمة عائلية خفية حملت تيارا بينهما .

ـ عربي . يا ولدي . فيم تفكر ؟

ـ انظري . ورقة الغد . الخامس من حزيران .. يونيو . بشنس . ربيع الاول .

ـ يا بني . لا تعذب نفسك . لماذا نعيش غدا ، اليوم .

ـ غدا ؟ ليس غدا يا امي . انه الخامس من يونيو الذي فات ، والخامس من يونيو الذي سيأتي ، وسوف يأتي دائما . لم يأت بعده نهار آخر .

ـ يا ولدي . ماذا اقول لك ؟ يوما ما سنحارب ، وننتصر.اخوك يؤكد ذلك .

ـ ننتصر ؟ حتى النصر لا اطمع فيه . اريد فقط حربا مشرفة . حتى ولو استمرت الى آخر الدنيا .

وتنفس بعمق ، وقال لها :

ـ معك حق . لماذا اتعبك معي ؟ انظري . الناس ما يزالون يلهون. سأتناسى الخامس من يونيو .

والتفت منتفضا بغضب :

ـ هكذا ..

ونزع الورقة من النتيجة . حطمها بكفيه ، وكورها ، وتركها على الصينية . وتنهد .

ـ ابتسمي يا امي . خذي هذه الصينية ، واطبخي ، وشوفي البيت . سأذهب الى الشرفة الآن . ابتسمي . قلت لك ابتسمي . ابتسمي يا امي .

ابتسمت امه حتى ضحكت . في قلبها بكاء كظيم لاجله . ربتت على كتفه بحنان . حملت الصينية ، وذهبت . ثوبها القطني، بنقوشه الكحلية ، لا يخفي اناقة قوامها . شالها الابيض يضم شعرا ذهبيا ، يطول دائما بسخاء ، مهما قصته لها اخته المتزوجة ، حين تأتي للزيارة. كان يمكن ان اتزوج واحدة مثلها ، لولا هاتان الساقان اللتان ضاعتا ، الى غير عودة .

***

ازاح الملاءة عن ساقيه . تحامل على جانبي عجيزته واحدا بعد آخر . وخلع بنطلون بيجامته القصير . جذب بنطلونه الصوفي القصير من المشجب ، فراح يتأرجح على الحائط حتى توقف . استلقى بظهره على الوسائد ، وارتكز ، رافعا وسطه ، على كتفيه ، ونهايتي فخذيه ، وشد بنطلونه ، وادخل ازرته في ثقوبها . وعاد يجلس ثانية لاهثا . استراح لحظة . وفك ازرار جاكتة بيجامته . ابتسم وهو يخلعها من ذراعيه ، حين تذكر ان المجمع اللغوي يسميها المدرعة . وضعها جانبا . وبرشاقة ، نزع قميصه النصف كم من المشجب ، دون ان يسقط . وتأرجح المشجب بمينا وشمالا ، حتى اصطدم باطار شهادته الجامعية . لبس قميصه ، وزر منه ثلاثة ازرار ، وترك رابعها العلوي . شعر صدره الكث يتلوى في فتحة الصدر مواريا افريز فانلته . عضلات ساعديه تملأ بفتوة استدارة الكمين . خسارة ان تظل هذه العضلات بلا توتر على سلاح . قال لنفسه : جندي متقاعد. محارب قديم . كل معركتي هي الهزيمة . اف . مشوه حرب بلا ثمن . الشهداء احسن مني حالا . استراحوا من حياة قعيدة مع احزان حزيران ، وذكريات مريرة . لكنك يا عربي احسن حالا من رفاقك الخمسة الآخرين ، الذين عادوا معك . لم يصب جسدهم

بخدش ، رغم قنابل النابالم ، والمدافع ، والالغام . لكن عقلهم لـــم ينج من الكارثة . ما زال غارقا في ذهول دائم ، وما زالوا يصرخون في المستشفى الصغير ، يحذرون من حولهم من الطائرات المعادية ، ويعدون مدافع وهمية يرفعونها الى السماء .

مشط شعره ثانية ، وارتكز على كفيه ، وادار نفسه ، الى حافة السرير ، بظهره . امسك بعجلتي مقعده الخاص ، وثبته بثقله المرفوع على كفيه ، ونقل نفسه اليه . ادار عجلتيه الى الخلف قليلا وتذكر : ذباب الشارع يصعد الى شرفته في الدور العاشر ، ويداعب آثـــارا محمرة لكتلة اللحم في طرفي فخذيه . وضع بشكيره الخاص علـــى فخذيه بعناية . تذكر نظارته السوداء ، حرك العجلة اليمنى بكفه ، ثم العجلتين معا ، واخذ نظارته الشمسية من فوق الكومودينو ، وحرك العجلة الى الخلف ، ثم العجلة اليسرى ، ثم العجلتين ، واتجه الى الشرفة . باهر هو الضوء . نسمة ساخنة تحرك اوراق الاشجار،على الرصيف المقابل من الشارع ، امام السور الاصفر لكلية التجارة . اعالي المباني في كلية التربية ، خلفها ، غارقة في وهـــج الشمس ونورها . تفح الارض صهدا يصل الى شرفته . ذرات عرق صغيرة جدا، تتجمع في مسام جبينه ، تكثفها تلك النسمة الساخنة التي لا ترى . نظر الى ساعديه وكفيه . شديدة السمرة بشرة جلده ، على العكس من باطن كفيه . سمرة داكنة اورثتها الشمس لعشرات العشرات مـــن اجداده في المزارع . قصيرة هي اصابعه واظافره . كفاه خلقتـــا لتقبضا على فأس او خنجر. قدماه . اوه . كانت لي قدمان،قصيرتان، عريضتان ، حتى لا تسقطا به في شقوق الارض الجافة . عرف قيمـــة هاتين القدمين مرتين . يوم سار حافيا على الرمال الملتهبة الهشـــة في سيناء . وتذكر : يوما ما ، وهو صغير في السادسة من عمره ، قطع غصن توت صغيرا من امه ، قبل عقدته . غرسه في حفرة علـــى حافة الترعة . سقاه من مائها، وسوره بالطين . كل يوم كان يذهب اليه ليسقيه يقطع كيلومترين بعيدا عن القرية ، خفية عن اهله ، حتى يكبر الغصن ، ويمد جذوره ، في باطن الارض ، الى مياه الترعة . كبرت شجرة التوت ، وصنعت باوراقها دائرة فسيحة من الظل،يأوي اليها الفلاحون والانفار في ظهائر الصيف . واعطت شجرته توتـــا وفيرا في كل موسم . لم يأكل منه ثمرة . جاء ابوه بالاسرة ، واقام في القاهرة . باعوا الارض من اجل التعليم . مات ابوه عندما بلغ سن المعاش ، ودفن في مقابر المدينة . راحت الارض ، وبيع بيـــت القرية ، فانقطعت الصلة بها . قلة من عائلته الكبيرة يأتون احيانـــا طالبين خدمة ما مـــن اخوته . كثير من اهل بلده جاؤوا في زيـــارات وداع حزينة لساقيه . وهو عائد من سيناء جائعا ، ظامئا ، مثخنـــا بجراح ساقيه ، رأى ربوة وحيدة بين التلال ، تناثرت فوقها اكـــوام الحشائش . آوى اليها مع الغروب . ادرك انه قد اقترب من الساحل، ونام محموما في رطوبتها ساعات من ليله . حيـــن صحا مرتعـــدا والشمس متوهجة بكى بشدة . وهو يبكي تذكر غصن التوت ، وود لو يزرع غصنا من شجرته ، في هذه الربوة .

جاءت امه بقهوته على صينية صغيرة ، وضعتها فوق الراديو ، ثم حملت منضدته الخشبية بما عليها ، ووضعتها امامه . ازاحت مـــا عليها جانبا برفق . وجاءت بصينية القهوة ، ووضعتها بين يديه. كان ما يزال شارد العينين في وهج الشمس ، وذكرى ايامه التي لا تنسى في سيناء .

ـ اشرب قهوتك .

انتبه لها ، وابتسم . فكر ، وقال :

ـ طيب . هاتي . آه . هاتي الجريدة .

ـ حاضر .

خرجت من الشرفة والغرفة ، وجاءته بصحيفة الصباح . اخذها مطبقة من يدها . وشرب رشفة من قهوته . وقال :

ـ اتعبتك معي يا امي .

ابتسمت بحزن . وقالت على الفور :

ـ تعبك راحة .

واضافت باخلاص يعرف صدقه :

ـ اود ان يطيل الله في عمري ، لاخدمك بعيني .

كثيرا ما تفكر في مصيره بعدها ، يعذبها كثيرا ، اكثر من النهاية المحتومة نفسها ، ان ترحل هي ، ويبقى هو ، اطال الله عمره . ينبغي ان يعيش ليستمتع بحياته . حدثت بذلك نفسها . وتنهدت . وفكرت للمرة الالف ، انه لا بد ان يتزوج ، ويستمتع بامرأة وذرية ، ويجـد من يرعاه بعد ان ترحل . قالت له وهو يشرب رشفة اخرى من قهوته:

ـ اخوك لا يريد ان يتزوج الآن . كلما حدثته قال لي : بعد ان تنتهي هذه الحرب . لكن الحرب لا تنتهي ابدا يا ولدي . دائما هناك حرب . هذه سنة الله في خلقه . حرب غليوم ، وحرب هتلر ، واحسب كم حربا عرفتها بلادنا . الحرب لا تنتهي ابدا يا بني . الحرب كالموت قدر لا مفر منه . لماذا لا يتزوج اخوك . الناس يتزوجون، وهم يعرفون انهم ذات يوم ، سيقابلون وجه الكريم .

كان ينظر اليها مشفقا بحب . الحرب ستنتهي يوما يا امي . يوما سيعم السلام العالم . هذا ما نحلم به وما نريده . سوف يحدث يوما يا امي ، لكن الطريق اليه صعب ، مليء بالدموع ، والدمـــاء ، والسيقان الضائعة ، والشهداء ، ومن يصابون بالجنون . قال لامه :

ـ انا مع اخي في رأيه ، حتى تنتهي الحرب . نحن في حداد . الخامس من يونيو يا امي جرح كل الناس الذي لم يلتئم بعد .

ـ يا بني . يا حبيبي . الحياة تسير . حتى الذين يعيشون في حداد ، يأكلون ، ويشربون ، ويتزوجون ايضا .

اف . هذه الام الطيبة لا تريد ان تفهم .

ـ اسمعي يا أمي . لو .. لو ـ لا قدر الله ـ استشهد اخي . الحرب لها شهداء دائما ، والا ما كانت حربا . ماذا تفعل زوجته ؟ تصبح ارملة تعيش على الذكرى ؟ تحار من بعده في تربية اولاده ؟ كيف يقيد الانسان مصير زوجته بمصيره هو .

تنهدت امه ، وفكرت . ضباب محير داخل راسها . ضباب لا يكشف لها عن حقيقة شيء . قالت بتوسل :

ـ وانت ؟

قال ساخرا : ـ لا . لن اذل انثى بزوج قعيد .

واضاف :

ـ بعدك ، اذا كان لي عمر ، ساجد خادما يرعاني . انتهينا .

قالت ، وهي تغادره بصينية القهوة :

ـ هيه . الامر لله . يفعل الله ما يريد .

***

فرد عربي صحيفة الصباح ، وقرأ . ٤ يونيو ١٩٦٨ . مـــرة اخرى . اف . « القوات المسلحة تقرر اعتبار غد ـ ٥ يونيو ـ يوم حداد » . غدا يوم حداد !! اتسمعين يا امي . تعالي واقرئي . غدا يوم حداد . واليوم وامس ، وبعد غد . وبعد بعد غد . اف . كفى تشاؤما ايها المحارب المتقاعد ، المهزوم ايضا . ماذا تظن ؟ اليس هناك من يذهب الى سيناء ، ويحارب افضل مما حاربت .. « جميع الضباط والجنود يرددون يوم ٦ يونيو قسم الثار » قسم الثار ؟ اين انت بين هذه الاسطر يا قسم الثار . ها هو . اوه . قسم ثار آخر . كـــل حياتنا قسم ثار . كم في حياتنا من قسم على الثار ، والانتقام،والحقد، والحب ، والكراهية ، ثم لا حصاد يذكر لشيء ، لاي قسم . قلوب تأكل نفسها ، وتأكل الطعام ، وتأكل الآخرين . عقول تحترق ذاتيا بلا شيء ، في لا شيء ، حتى للا شيء . يا امة اللا شيء ، متى تكونين شيئـــا ؟

« نحن جنود القوات المسلحة ...

نقسم بالله العظيم . نقسم بالله العظيم . نقسم بالله العظيم ،

اننا قد عقدنا العزم ، على تقديم ارواحنا ، فداء لتحرير ارضنا المغتصبة ،

مؤمنين بالله وبالوطن وبعدالة قضيتنا ،

مؤمنين بأن ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة ،
واثقين اشد الثقة بأنفسنا ، وبقادتنا ، وسلاحنا ،
سبيلنا هو : الجهاد المقدس . شعارنا هو : النصر او الشهادة »
جميل أنت ايها القسم ، حين تصبح فعلا حيا وخالدا . قبل ذلك ، يا قسمنا ، لست سوى وعد ارادة خالة ، لا يدري أحد مدى صلابتها . خذ معك ايها القسم صلابة قلبي ، وعمق حزني ، وساقي المقطوعتين ، وحياة الشهداء ، ومأساة المطرودين المشردين ، من ارضهم العطشى الى الدماء الحرة ، وسوف ترى ، ايها القسم ، اي حقيقة ستكون .

وقرأ عربي عناوين اخرى :

« ذروة الموجة الحارة اليوم . الجو يتحسن غدا »

أواثقون انتم يا رجال الارصاد الفلكية ، ان الجو سيتحسن غدا، وهو الخامس من يونيو ؟!

« خروشوف ونينا يزوران معرضا للادوات المنزلية في موسكو »

« الصين تتقدم ذريا بسرعة »

« معارك بالسكاكين بين العرب واليهود في باريس . البوليس يتدخل لفض المعارك التي سقط فيها الجرحى من الجانبين »

هه . معارك !! في باريس !! .. المعارك يا عرب يجب ان تكون هنا ، بالاسنان ، على ارض سيناء ، وفلسطين ، والجولان .

« مؤتمر السلام الدولي يعقد اجتماعه التحضيري ، لممثلي الدول غير المنحازة ، في شهر يونيو »

اي سلام يا منظمي المؤتمر مع هذه المعارك بالسكاكين ؟!

« لم يحدث اي تقدم نحو السلام ، بعد عام من وقف القتال »

ولن يحدث ابدا يا رجال الكلمات ، حتى يقول السلاح كلمته . لا بد للجسد الحي ان يطرد الجزء الغريب عنه ، مهما طالت مدة زراعته فيه ، او يهضمه بصورة يفقد معها كيانه الخاص. الجسد الحي وحده ، يا عربي ، يفعل ذلك .

« خطابات وطنية للرؤساء العرب يوم ٥ يونيو »

ما اكثر ما نتكلم ، ونخطب . ليتنا ، يا قومنا ، نعرق بقدر كلامنا . آه .. يا احزان حزيران .

وطوى عربي الصحيفة ، ووضعها على الرف السفلي للمنضدة . واتسعت حدقتا عينيه الشاردتين . وتمزقت روحه ، بين حزن ود معه ان يبكي ، وامل ود به ان يبتسم .

***

دق « عربي » جرسا ، وضعوه من اجله في حائط الشرفة . وجاءت امه . اكمام ثوبها البيتي مثنية ومرفوعة حتى المرفقين . يداها المجففتان ما تزال عليهما آثار عصير الطماطم .

ـ نعم يا بني . طاولة ؟

ـ لا .

ـ كوتشينه ؟

ـ لا . لا اريد ان الاعب نفسي . هاتي الخشب والادوات .

استدارت امه الى الغرفة ، وعادت بصندوق ورقي من فوق الدولاب ، وضعته بجواره .

ـ شيئا آخر .

ـ لا . شكرا يا امي. اذهبي انت .

ابتسمت له امه بود ، وعادت الى المطبخ . وبقي هو مع اصابعه المشبوكة وابهاميه اللذين يدوران حول بعضهما . وفكر : ماذا تريد ان تصنع يا عربي . لا الدبابة ولا الطائرة ، ولا المدفع ، ولا الرشاش . كله صنعته يا عربي . علقت نماذجه الخشبية على الجدران ، احلاما واعدة وبائسة . شيء واحد لم تصنعه يا عربي بعد . عرب آخرون يصنعونه هناك ، في الارض الجديدة المحتلة . بل شيئان يا عربي : القنبلة اليدوية ، والخنجر . بحاجة متحفي واحلامي ويأسي واملي اليهما . تفتقدهما الجدران دائما ، وكنت اقول لنفسي : ما الذي ينقص وطني في حجرتي ، وجدراني ، وطني الخاص جدا . ليتهما ظلا يفجران الدماء والحرية في الارض القديمة المحتلة . ما كانت الارض الجديدة قد غزيت هي الاخرى . أكلت يوم أكل الفيل الآخر . سلبت يوم أدارت كل قرية ومدينة ظهرها لما سلب ، وراحت تحلم بالعودة ، تحلم ، تحلم . فعل هي العودة لا حلم . ينبغي ان تظل كذلك دائما يا عربي ، فعلت ما فعله جحا ، حين اخبروه بنزول العار في مدينته ، فحيه ، فشارعه . لو كانت بيوتنا هي بيوت الآخرين من قومنا ، ارواحهم ارواحنا ، واعمارنا هي كل العمر المفروض في قلوبنا للوطن .. لما حدث ذلك كله يا عربي .. لو .. لو .. كفى عذابا بالندم يا عربي . « لو » حرف امتناع لوجود يا عربي . امتنعت كل الحقائق المفروض ان تحدث وتصير واقعا ، لاننا هكذا . تعذب بوسيلة افضل يا عربي . بوهمك وحلمك الزاهي المقبض فلتتعذب . هذا هو الخشب والادوات . والقنبلة والخنجر ملء قلبك وعينيك.وبداك، كحلمك ، اكثر قدرة من ساقيك . لعين هو الحلم حين يصير بديلا للواقع ، والمتحف بديلا للميدان . لعين هو الفن حين يصير مجرد تعويض ، والكلمة مجرد خواطر . واللعنة الابشع والافظع يا عربي الا تجد بعجزك ، وبساقيك الضائعتين ، سوى ان تعيش ما هو لعين ، فلا بد ان تعيش بصورة ما يا عربي . القنبلة والخنجر لا بديل لك غيرها الآن يا عربي ، في شرفة سجنك .

وشرع العربي يصنع بحماس قنبلة وخنجرا . وعقله يفتر ، وقلبه يتوهج وعيناه تغفوان لحظة بعد لحظة على الصورة الرائعة ، ويداه تجسدان الصورة في الخشب ، قنبلة ، وخنجرا .

***

.. كانوا ثلاثمائة رجل . يتوغلون في الارض القديمة المحتلة . يعودون اليها بالامل . لقد بدأت الحرب يا رجال . هم بدأوها وعلينا ان نتقدم . هكذا تقول الاوامر : تقدموا . القلب يقولها ايضا،والعقل، والساعد . شمس يونيو الضاحية تتوهج . كل شيء ساخن : حديد الدبابات والسيارات ، وشعر الرؤوس ، وجلد الثياب ، والرمال الناعمة التي تتحرك ، وتبدو فيها آثار الاقدام والجنازير والعجلات . الطلقات تنفجر يمنة ويسرة ، اماما وخلفا ، ولا مستعمرة واحدة ترد على طلقة . سميكة هذه المستعمرات ، ومحتملة ، وساكنة سكون الموت والعدم ، كالثعلب حين يحتال على فريسته ، والقنفد حين يتحصن بكرويته الشائكة .

ـ ظمأى للماء يا سيدي الضابط .

ـ لم يحن الوقت بعد . الماء معنا قليل .

. . . . . .

ـ لم نفطر يا سيدي الضابط ، والعصر يأتي .

ـ لا . حتى تتواصل بنا خطوط التموين ، خلفنا .

. . . . . .

ـ معنا اقراص من الحلوى العلف ، لمثل هذا الوقت يا سيدي.

ـ لا . لم يأت حينها بعد . ثم .. ستجعلكم تظمأون اكثر .

ـ نصبر يا سيدي ..

. . . . . .

ـ لكنهم لا يردون علينا . ربما رحلوا فارين ، او تسللوا خلفنا .

ـ لا مناقشة . الاوامر . فلنتقدم فقط الى الهدف ، حتى يأتي امر آخر .

ـ الامر للاوامر يا سيدي الضابط .

ـ . . . . . .

. . . . . .

ـ سنقع في كمين يا سيدي الضابط .

ـ . . . . . .

. . . . . .

ـ الوقود ينفد يا سيدي الضابط .

ـ . . . . . .

. . . . . .

ـ عددنا قليل يا سيدي الضابط ، توغلنا اكثـــر من طاقتنـا والذخيرة تتناقص بسرعة .

ـ اتصلت بالقيادة . لا ترد القيادة بعد . انتظروا .. انهـم يأمروننا بالعودة . اذن . فلنعد .

ـ كيف نعود يا سيدي الضابط . ما نحتاجه مدد من الرجال والمؤن والذخيرة والآلات .

ـ ماذا لا نحتاجه اذن ؟ فلنعد . هذه هي الاوامر .

ـ الامر للاوامر يا سيدي الضابط .

. . . . . .

ـ نفد الوقود من الدبابات والسيارات .

ـ نتركها اذن .

ـ كيف نتركها يا سيدي الضابط .

ـ ندمرها الآن . لن يحصل عليها العدو الا خردة .

. . . . . .

آه يا سيناءنا الحبيبة . نعود اليك على الاقدام ، بدون مدرعاتنا. فمعذرة يا أرضنا البكر المعذبة . ليلك ما أجمله ، ونجومك ، وصمتك . وأصواتك الصحراوية ، في الاذنين ، طنين صمت داو . أوه ، ها هو واد بين جبلين في البعيد . مصابيح ضوء على جانبي الوادي فـي الهضاب ، تدعونا اليها . لمن أنت أيتها المصابيح . لكتائبنا التـي غادرناها يا رجال . مزيدا من التعب ، باقدامنا المتورمة ، لنغفو فـي سلام مع الفجر . انها تنتظرنا . يا رعبنـا أن تكون العدو ـ ليس بوسعهم ذلك . فمنيعة هي مواقعنا ، وقاهرة هي أسلحتنا . أسرعوا يا رجال . الماء هناك والطعام والنوم . كلوبات هي المصابيح . عجيب. ولا صـوت .

ـ تقدموا بحذر . سنصعد التلال في صمت تام ، ونرى . ارفعوا صمام الامان واستعدوا .

في الوادي نحن . أصابعنا على الزناد . فجأة . أضاء الليـل ورعد بالضجة والشهب . وطارت القذائف كالحمم . وهبطت فوقنـا في الوادي والسفوح . طاخ . آه . طاخ . طاخ . طاخ . والمصابيـح ما تزال مضاءة ، تهتز لضغط الهواء ، وتقيم في تكائف الدخان .

ـ اطفئوا الكلوبات .

ساد الظلام من ضوء القذائف .

ـ أسرعوا بالنجاة من الكمين .

. . . . . .

كم نحن الآن . ثلث ما كنا . ثمانون . تسعـون . مائة . ليس أكثر من مائة . قتلانا في الليل هناك ما يزالون . جرحانا في الوادي يتوسلون لجرعة ماء . ونحن مع الصباح نسير . أي صباح ؟! الليـل ما يزال في قلوبنا ، لكن الشمس تتوهج من الافق في ليلنا . الليل بصمته وأصواته الصحراوية ، بلا نجوم . نتساقط واحـدا بعـد واحـد . لفورنا ننام . جباهنا على الارض . رائحة الرمال تتصاعد ، عبر العيون المغمضة ، حلما زاهيا جميلا بالموت والراحة ، وبالطعـام ، والماء ، والتبول الى جوار جدار خرب . أيدينا ممتدة . نشرب ولا نرتوي . ناكل ولا نشبع . نفرز ولا نستريح . لا نصل الى شيء ابدا. النور ينطفيء يا عربي . كابوس رهيب نقع في أسره ، تحوم فـي سمائه الطائرات ، تقذفنا في ضـوء الشمس بالقنابل ، تصطادنـا بالرشاشات . آه . آه . اه . لماذا تضربيننا أيتها الطائرات ؟ نحـن أحياء بلا حول ، وقد أصبحنا الاحياء الاموات . استيقظ يا عربـي . انك تحلم . سيخنقك الكابوس . استيقظ يا عربي . الطائرات تغير فوقنا . أسرع بالاختباء معي . آه . لا . انني أحلم . لا أستطيع . انني نائم . نائم . ميت يحلم . حي ميت . ماذا بوسعي أن أفعل . رأسي ثقيل لا يتحرك . يدي لا أستطيع أن أرفعها . أسمع الطائرات. أرسلتها من التلال عيون الشر المضيئة . أعرف . أعرف . لكننـي مكبل ، عاجز . نائم . نائم . النوم ، والسكون . ذهب الكابـوس والطائرات ، ونائما كنت أو ميتا الآن . فاصمت . اصمت يا عربي . لا تفكر ، نم واشبع نوما ، أو مت واشبع موتا .

. . . . . .

.. كم نحن الآن يا عربي ؟ واحـد . اثنان . ثلاثة . ثلاثـون يا عربي . عشر ما كنا ، ولا بنادق ، ولا شيء . لا شيء سوى رجال عجاف ، تهدلت جيوب تحت عيونهم ، عطاش وجوعى ، اختلط لـون وجوههم بلون الشعر والرمال ، ثيابهم عليهم كانت لغيرهم . كلهـا ملطخة بدماء جفت . بعضهم حفاة ، والبعض في أقدامه أحذيـة بلا نعال . أيديهم مدلاة ، وسيقانهم بلا ركب ، تنثني دائما مع كل خطوة . يتعثرون ، وجباههم محنية . مـاذا أرى ؟ هذا أنا . وهؤلاء هم . الليل يتعاقب والنهار ، كأضواء النيون . يشرق النور ويغرب فـي ومضة ، هي عمر الليل وعمر النهار . ننام ونصحو ، نمشي ونقع ، لكننا نمشي ونعيش ، ظمأى وجوعى .

ـ يا أخا العرب .. اسقني .

يرنو الينا أخو العرب من أعلى الى أسفل . يبتسم . طيب . ابتسم . ابتسم كما شئت الآن . واضحك أيضا . مـن حقك أن تضحك يا أخي . لقد اكتشفت شيئا هاما لتوك : الاسطورة صارت خرافة . فقط ...

ـ اسقني . لقمة خبز .

ـ طيب . كم معك .

ـ هذا هو . خذه كله . فقط ، اسقني . جرعة ماء . لقمة خبز.

ـ انك جريح .

ـ . . . . . .

ـ تتالم .

ـ نعم .. لكنني جائع ، وعطشان . اسقني فقط . لقمة خبز . أسرع . الموت لا يهم . لكنه مع الظمأ والجوع فظيع .

ـ طيب . هات ما معك . تعال .

ـ بعيد .

ـ لا ...

ـ حاضر .

ـ خذ .. اشرب .. كل .. في المرة القادمة ، تعلم كيف تحارب.

. . . . . .

كم نحن الآن ؟ واحـد . اثنان . ثلاثة . اثنا عشر يا عربي . الآخرون ؟ أين ذهبوا ؟ كم كنا في آخر مرة ؟ لا أذكر . سقطـوا محمومين يرتعدون ، ويصرخون ، شفاههم متشققة ، يبللونها بالسنـة جافة ، ينادون أمهاتهم . يطلبون جرعـة ماء ، ويتشهدون . ها هو أخيرا . طائر مفترس يرفرف بجناحيه آمنا ، يستعد خلفنا . أسرع . أسرع أيها الطائر . جثث كثيرة وراءنا . أدركها قبل أن تصير ترابـا وهياكل . في صحراء ما ، تسقط الجمال جائعـة ظامئة . ترقد علـى الطريق باركة . تزحف جانبا . تستلقي على جنوبها ، وتموت فـي هدوء ، وتتعفن ، ثم .. هياكل ، هياكل ، هياكل في معبد المـوت . أسرع أيها الطائر ، أولى من الدود والتراب أنت . دع روحها تصرخ في حواصلك ، وأنت ترفرف بجناحيك . من أين جئت أيها الطـائر ؟ هناك سأجد أمي . ستسقيني ، وتطعمني ، وتغني لي في شجـو حزين . رأسي على فخذها ، ويدها على جبيني ، وصوتها يدنـدن : نام يا حبيبي . نااام . وقلبي يغني على ايقاعها أغنية قديمة ، معذبة، ومبكية : متى نحارب ؟ متى نحارب يا سيدي القائد ؟

يزحف الليل ، ويأتي . وهواء البحر الرطب ، يهب من الغرب .

ـ لن ننام يا دفعة هذه الليلة . لقد اقتربنا . ساقذف بنفسي في القناة ، وأعبر . هناك سأجد أمي على الشاطيء الآخر . في يدها كوب لبن ، وماء ، ورغيف ساخـن . لا . لا تشرب من ماء القنـاة يا دفعة . مالح هو ومميت ، لن تستطيع أن تتـوقف من الظمأ . لا تعرف العوم ؟ لا تخف . اقذف بنفسك في الماء ، وامسك بساقي ،

ـ التتمة على الصفحة ٧٢ ـ

احزان حزيران

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٧ ـ

***

ساقي فقط . احذر أن تمسك بعنقي أو يدي . سنغرق معا اذن . تعال من هنا . ابتعد عن طريقهم . أتسمع ؟.. انهم قريبون . فلنصعد هذه الهضبة ، ونهبط .

آه . آه . الارض تنفجر تحت اقدامنا ، بالرمال ، والدخان . وننتاثر أشلاء في الفضاء . ألفام . ألغام . ارجع . أين أنت ؟ أين أنتم ؟ أين أنا ؟..

ـ هذه هي القناة .

ـ لحظة .

ـ لا .

ـ سأستريح .

ـ لا . العدو قريب منا . ستجذبه الالغام التي تفجرت . أسرع .

ـ كم نحن الآن ؟ واحد . اثنان . ثلاثة . ستة . ستة فقط !!

ـ أسرع . ليس هذا وقته .

. . . . . .

اشرع المدفع . زاوية ٣٦ . الطائرة تقبل . اضرب . اضرب . آه .. آه ..

اصح . اصح يا عربي . يا حبيبي يا بني . مالك يا عربي ؟ عربي يا أخي . أنت تحلم . لا . لا . أنا في الحقيقة . كنت مع الحقيقة . افتح عينيك . هاتوا له كولونيا . اضربه بكفك يا زوجي . آي .. آي .. أين أنا ؟ من أنتم ؟ من أنتم ؟ سرير ؟ غرفتي ؟ انني أحلم . دعوني أعود الى الحقيقة . أنتم الحلم . الحقيقة الوحيدة هناك في الميدان . لا يا عربي . نحن أهلك . أنت في بيتك . هذه أمك . هذه أختك . أنا زوج أختك . انا أخوك . أنت صحوت من النوم والكابوس . لا . لا . دعوني في الحقيقة . أنتم الحلم . اصرخ . اصرخ يا عربي . أين المدافع ؟ أين الطائرات ؟ آه . لقد ذهبت . لم يبق لك يا عربي سوى : الحلم .

***

صحا عربي من غفوته . كانت القنبلة اليدوية ، في بهائها السحري ، على المنضدة . لا ينقصها سوى لون رمادي ، وسلك رفيع ، يمسك الذراع بجسمها . بين يديه كان الخنجر الخشبي والمطواة . كان الخنجر خشنا ما يزال يحتاج الى سنفره . مع انه من خشب ، فهو يكفي ليقتل . وفكر عربي حائرا ، ان في عينيه اثر نعاس ، وفي عقله صحوة يقظة ، وفي خاطره آثار حلم . هل كنت نائما أو يقظا يا عربي ، وأنت تحلم ، مستسلما للكابوس وللذكرى ؟ نفس الحلم يعاودك بعدما نسيته منذ شهور طويلة . جاءوا ، كما كانوا يفعلون قبلا ، وأيقظوك ، ولم يأت أحد . هذه المرة فقط ، حلمت مع الحلم انهم هم الحلم المرعب ، وما كان في سيناء هو الحقيقة الاقل رعبا . صار الوهم ، وما يزال حقيقة ، والحقيقة ، وما تزال وهما . ثم .. ثم ماذا يا عربي ؟

ها أنت في مقعد العاجز والاشل ، تعيش في ذاتك ، وتجتر نفسك . تأكل وتشرب ، وتنام وتحلم ، وتحترق بلذة معذبة ، تأكل فيها نفسك حتى تصاب بضغط دم ، أو ذبحة صدرية ، تقودك الى سكتة أبدية . مع ذلك ، فانت حي ، حي يا عربي . أكثر حياة وصحة من أي انسان آخر ، ينام بلا حلم ، ويأكل بلا شهية ، ويعيش بلا أمل ، هاربا بالحركة الصماء ، والراديو ، والتلفيزيون ، والمسرح ، والسينما ، والزيارات ، والضحك الهستيري ، من التفكير في سؤالين يعذبانك : كيف ؟ والى أين ؟

آه من زمن يصبح فيه احتراق الروح ، يا عربي ، هو الوسيلة الوحيدة للصحة والحياة . لكن .. لو عادت الحقيقة ، كما كانت حقيقة ، والوهم ، كما كان ، وهما .. لو عادت الحرية ، واعتدلت الصورة المقلوبة المهترئة ، كيف ستكون أنت يا عربي ، وكيف ستكون حالك بعدها ؟

ستحسد الاحياء الذين يملكون سيقانا ، يركبونها حينا ، ويصعدون بها الى السيارة والترولي حينا آخر . ستشتاق الى زوجة ، والى أن تدخل في منافسة يومية ، صامتة ودءوبة ، مع الآخرين ، وأنت تتكلم ، وتعمل ، وتحلم بالمستقبل وتتغافل عن الموت . ستحتاج أيضا الى أن تبتسم ، حاجتك الآن الى البسمة . سترغب حتى الالم ، في أن تجري ، وترقص ، ترقص ، ترقص بساقيك وترفرف معهما ، بمنة ويسرة ، بذراعيك ، ولم تكن ترغب في الرقص أبدا ، أو حتى تفكر فيه ، قبل أن تصير هكذا ، بلا ساقين . ستشدك الى مقعدك كل أغنية معذبة ، وكل لحن حزين . ستشتاق الموت ، وتصبح كل ذكرياتك لسنين طويلة ، هذا المشهد الراكد ، لرؤوس الاشجار ، وأعالي مباني كلية التربية ، وكلية التجارة ، وملتقى هذا الشارع الجانبي بشارع القصر العيني . ستصبح ، يا عربي ، مع الزمن ، ذكرى منسية ، لمحارب منسي ، يحيا بدلا منه نصب حجري لجندي مجهول ، توضع أسفل قاعدته الزهور ، وتعزف حوله في المناسبات ، موسيقى الجندي المجهول . كفى . كفى احتراقا يا عربي ، وتعذيبا لنفسك . فقط ، فليعد الوهم وهما ، ولترجع الحقيقة حقيقة . ثم .. فليكن بعد ما يكون . يكفي أن تدب الروح فيما حولك ، ويجري دم الحياة في العروق والاعصاب المتعبة . أليس كذلك يا عربي ؟ عندها ، يا عربي ، ستجد تعويضك الخاص لساقيك في سيقان غيرك . وربما تجد لنفسك حياة أكثر غنى ، مع كتاب تقرأه ، أو لوحة ترسمها ، أو مذكرات تكتبها ، أو قطعة خشب ، تجعلها يداك تنطقان بالحياة ، وتعبران بالوهم عن الحقيقة .

وقذف عربي بالخنجر والمطواة الى الصندوق . وتخيل انه يجذب سلكها بأسنانه ، ثم قذف بها الى الصندوق ، زافرا .

***

دق جرس الباب . سمعه في مكان من رأسه . ولم ينتبه اليه . انتبه فقط ، حين سمع صوته آتيا من بعد . يقبل أمه . ويسأل بلهفة :

ويقول :

ـ جئت لانقذى معكم . سأرحل سريعا . لم ؟ نحن في حالة طوارىء والسيارة تنتظرني أسفل .

ـ حالا ، حالا يا بني . سأضع الغداء في الحال . أخوك بالداخل.

وهو يسمع صوت الباب يغلق ، التفت بجذعه كله ، شوقا الى أخيه . انه يحتل الآن ، مكانه هو ، في الجيش . بوده ان يسمع منه أخبارا ، مطمئنة كانت أو غير مطمئنة . لا . لا وهم الآن . الحقيقة فقط ينبغي أن تسمع الآن .

أقبل أخوه مسرعا نحوه . تركزت عينا عربي للحظة على ساقي أخيه . تخطوان بثبات وحيوية وحياة ولهفة . رفع بصره سريعا عنهما . ما ينبغي له أن يحسد أخاه ، أو حتى يغبطه ، على شيء . انه هو ، أمس ، والآن ، وغدا . كان في ثياب الضابط ، الذي تركه عربي شهيدا في وادي المصابيح والشهب . ونجمتان على كتفه . انحنى عليه محييا بكفه ووجهه ، وكفه الاخرى على كتفه :

ـ كيف حالك الآن ؟

ـ بخير . عمر الشقى بقى . وأنت ؟

ـ كما ترى .

عاد أخوه الى الحجرة ، ووضع البيريه على سريره . وسحب كرسيا حمله في يده . وجلس بمقابل أخيه ، وهو يزم شفتيه مبتسما له . وراح يتدفق كلاما وحركة :

ـ ما هذا ؟ الصندوق ؟ الخشب . يا رجل ، أوقف هذا الحلم . معسكراتنا الآن مليئة بكل ما تصنع . أسلحة تسد عين الشمس ، لها أسماء لم تسمع بها أبدا .

ـ والرجال ؟

ـ اسمع . بتواضع . لا عهد لك بهم . يتعلمون سريعا .

ـ حقا .

ـ هز الضابط رأسه مؤكدا . سأل عربي :

ـ والقلب ؟

دار الضابط بعينيه على الجدار المقابل ، وتوقف بصره عند المدفع الرشاش . وقال :

ـ آه . هذا جديد . لم أره في آخر مرة .

راح عربي ينظر اليه مستفهما . قال الضابط :

ـ بالتأكيد . عيناي لا تكذبان علي . وعرقي على حديدهـــا يشهـــد .

عاد عربي يسأل :

ـ والقلب ؟

ابتسم الضابط ، ورنا الى عربي قائلا :

ـ ماذا في قلبك أنت ؟

غامت عينا عربي رانيتين الى الافق . قال :

ـ ما في قلبي يكفي ، لو استطاع أن يتحول فعلا ، ليصنـــع اعصارا ، وزلزالا . لكن ...

قال الضابط مؤكدا :

ـ ما في قلبك ، هو في قلبي ، كجندي . لكن الفعل هو المهم . كيف ؟.. هذا ما سوف نعرفه .

تذكر عربي ، وقال :

ـ منذ سنوات بعيدة ، كانت ألمانيا تحارب . كانت تهزم . وكان الناس هنا ، في هذه المـــدينة ، يتحدثون ، مرددين ، عن المخـزن رقم ١٣ ، الذي لم يفتح بعد .

ثار الضابط ، وقال محتدا :

ـ ما أقوله لك حقيقة .

قال عربي بلهفة :

ـ اذن . سنحارب .

ـ نعم . اذا ...

ـ ما دخل « اذا .. » هذه ، الآن ، هنا ؟

قالها عربي بغضب . وأكمل الضابط قائلا :

ـ اذا لم ينسحبوا في اللحظة المناسبة لهم .

ـ ونحن ؟

قالها عربي بحزن . وأضاف في ضياع وألم :

ـ ويظل الجرح كما هو ؟ الشرخ يظل في كل قلب ؟ الشهـداء بلا ثمن ؟ والعدوان بلا عقوبة ؟ الصدع يبقى في كل بيت ؟ كيف ؟.. تعود قضية الارض القديمة المحتلة معلقـــة كما كانت ؟ كيف ؟.. ما رأيك أنت ؟

مط الضابط شفتيه مفكرا . وقال :

ـ أنا معك . لكن ، أحسب ان المسألة سياسة أولا ، قبـــل أن تكون حربا .

ـ سياسة أولا ؟ حتى لو كانت حرب شرف . حرب تحرير ؟

ـ السياسة توقيت . عمل مؤقت . لكل شيء وقته المناسب . هذا تقديري . بدون توقيت تحدث كارثة ، لا يعرف أحد لها حـدا ، ولا نهايـة .

كز عربي على أسنانه . وقال :

ـ اسمعني . أعلم ان الحرب كريهة . لكنها ضرورية لـــوقف خطر ، لو توقف اليوم وتراجع ، فسوف يعود غدا . يجب أن نضـع حدا لهذا الخطر . أجلنا دفعه سنوات طويلة فماذا كانت النتيجـــة ؟ نؤجله غدا ، فماذا تكون النتيجة ؟ مزيدا من الخطر والشر . استعمار يستوطن الارض ، ويحيل قومنا الى قبائل كالهنود الحمر .

تنهد الضابط ، وقال :

ـ أعرف . أعرف . لكن ، لا ينبغي أن تدفعنا المحنة الى تصرف متسرع يضاعف المحن ، ويجعلها أقوى . العقل هذه المرة لا العاطفة . العقل مائة بالمائة .

فكر عربي ، ثم قال :

ـ اسمع . ما رأيك في القنبلة اليدوية ، والخنجر ، والمدفـــع الرشاش ؟

ـ تسألني أنا ؟ أنت تعرف الجواب كما أعرفه . كان ينبغي على أبناء الارض المحتـــــلة ، على شبابنا جميعا ، منذ عشرين عـــاما ، ألا يوقفوها أبدا . الآن ، أيضا ، لا ينبغي أن تتوقف هذه القنبـــلة اليدويـــة .

عاد الضابط يتنهد . وقال :

ـ اسمع . جئت لاجلس معك . وأطمئنك ، وأجعلك تســـلو وتبتسم . دع هذا الموضوع اليوم . وتأكد أنني معك دائما . هيـه . وأنا أمارس التدريب على السلاح ، أفكر ، انني أنت .

ابتسم له عربي . أوشكت دموع أن تترقرق في عينيـــه . قال أخوه :

ـ تلعب طاولة ؟

ـ لا . ليس الآن . سنذهب الى الغداء . أتسمع ؟ صـــوت الاطباق على المائدة ؟! ورائحة اللحم المقلي ؟! لكن .. هل معك أحـد في السيارة التي تنتظرك ؟

ـ نعم . جندي .

ـ هل .. تغدى ؟

ـ سيفعل ذلك . سيشتري ساندويتشا من المطعم .

توترت كفا عربي وعضلات ساعديه على ذراعي مقعده :

ـ كيف ؟ أمام بيتك ؟ كيف سيحارب معك اذن ؟

دق عربي الجرس المجاور ، وقال آمرا :

ـ اهبط اليه ، واجعله يصعد معك . أنتما ضيفاي اليوم .

نهض الضابط خجلا ، وهو يبتسم . ووضع البيريه عـــلى رأسه ، وغادر الغرفة . وترك باب البيت مفتوحا وراءه .

جاءت أمه ، وقالت في لهفة وقلق :

ـ أين ذهب أخوك ؟

قال لها عربي :

ـ معنا صديق يا أمي . ذهب ليأتي به . سيأكل معنا .

هزت أمه رأسها ، وفهمت ، وابتسمت بحنان ، وانحنـــت عليه . قبلة في جبينه . وضغطت كفها بمحبة على ظهر كفـــــه ، وانصرفت عائدة . وتحرك عربي بمقعده ، عابرا أبوابا بلا أعتـــاب : باب الشرفة ، وباب الغرفة . وتوقف في الصالة أمام باب البيـت المواربة ، ليكون في استقبال ضيفه . وراح يفكر .

ومض في رأسه خاطر : أحزان حزيران . سيأتي يوم مـــا ، تصبح معه أحزان حزيران ذكرى . يكتبها المؤرخون سطورا جافـة . ستكون الرؤية يومها أكثر وضوحا . سيكون الخامس من يونيو مجرد حرب صغيرة وسط حروب التاريخ . جولة كانت في حرب . أو ربما تكون حربا اكتشف العدو مدى ما فيها من حماقة فتراجع عنها . عندئذ ستنسى الاحزان يا عربي . الاحياء فقط من سيناء ، ستظل حـرب يونيو حية معهم . وحين يموتون ، ينتهي كل شيء : الاحـــزان ، والذكرى . ماذا يحدث يا عربي لهـــذه الاحزان ، لو سجنتها حية ، في كلمات ، أو ربما لوحة ، أو قطعة حجر ؟ صفحات مذكـــرات يا عربي ، أبقى للزمن ، من اللوحة ، وكتلة الخشب أو الحجـــر ، وسطور المؤرخين . أحزان حزيران صورة مقلوبة مهتزة ، فيها الحقيقة وهم ، والوهم حقيقة . وقبل أن ترى الصورة في طبيعتها ، ينبغـــي أن تخلد الى الابد . شاهدا ، أصدق من كل شاهد ، ثمنا أغلى مـن كل ثمن ، لساقيك المبتورتين ، اللتين سبقتاك الى حفرة رمليـــة في مقابر الامام . لكني ، يا أخي الضابط ، الذي أسمع خطوه مع خطو الجندي ، في ايقاع واحد ، مع دقات قلبي ، أسألك : متى لا تكون صورة حزيران مقلوبة ومهتزة ؟!

القاهرة

سليمان فياض